القصص

صور من هوميروس

حُروب طَرْوَادَة

التفاحة المشئومة

للأستاذ دريني خشبة

نشـــيد الزمان !
وقصيدة الماضي !
وغنـــاء السلف !

وحُداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد ؛ رُكبانها الآلهة ، وأبوللو وكيوبيد ومَلؤها ولِداتها المخلّدون !

* * *

أنشـــد يا هوميروس !
واملأ الأحقاب موسيقى !
واللانهاية جمالاً وسحراً !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والانسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دويّ العصر ، فهي أبداً تحنّ إلى سكون الماضي !

* * *

لن تصمت يا هومـــيروس !
فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك !
والقلوب هي القـــلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً ، فلقد أوسمتنا هذه الدنيا أنيناً ؛ ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين !

— ١ —

رآها تخطر فوق الثبج ، وتميس على رؤوس الموج ؛ فهام بها ، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمب ، فكان يقضي عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة ، ويفتش في كل موجة عن حبيبته « ذيتيس » . . . عروس الماء الفاتنة ، « ذات القدمين الفضيتين[1] » ، ابنة نريوس ، رب الأعماق ؛ الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس ، في قصور المرجان . . . هناك . . . هناك تحت العُباب . . .

ورقت له الفتاة ، حين علمت أنه رب الأرباب ، وسيد آلهة الأولمب ، زيوس العظيم ، فوصلت بحبالها حباله ، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة ، تصاول حيرا أم مارس وقلكان ، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبوللو ، وتدل على ديون أم ڤينوس . . . وعلى سائر ربات الأولمب !

وابتسم لها الزمان ، وتساقيا كؤوس الغرام دهاقاً ؛ وأوشك الالـه الأكبر أن يبني بها لولا وسواس خامر قلبه ، فآثر أن يستشير ربات الأقدار[2] قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشيء

ولقد شاء حسن طالع الالـه الأكبر أن يفعل ؛ إذ أخبرته أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب ، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه ؛ أو على الأقل ، تكسف شمس عظمته شمس أبيه ، فيعيش إلى جانبه إسمّةً لاشأن له . وهوّنت فدته عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع ، ويستحر القتال ، بين شعبه « الأغريق » وجيرانهم « الطرواديين » . . .

(١) العبارة من هومير

(٢) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية ، ما عدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات : (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء ، (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه الخير والواهي ، (٣) أتروپوس كبراهن وهي تقطع الحبل جزءاً فجزءاً بمقص كبير

وخفق قلب زيوس ، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن [1] بعد فظائع وأهوال ، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه

فلك قصر هواه ، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي أن تتزوج ذيتيس من بليوس ملك فيتيا ، الذي كان هو الآخر مولعاً بها ، مشغوفاً بجمالها حباً . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبنى ابنته على بشريٍّ هالك ولو كان ملكا . بيد أنه صدع بأمر الآله الأكبر ، وقبل بليوس لابنته بعلاً . . .

وحزنت ذيتيس ، وانكفت في غرفتها المرصعة باللآلىء تشكو وتبكي ؛ فلما علم زيوس ما حل بها ، زارها من فوره ، وطفق يلاطفها ويرضاها ، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك : « على أن تحضر بنفسك ، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف ، وليعزف أبوللو على موسيقاه ، ولترقص ديانا ربة القمر . . . »

— ٢ —

ودُقّت البشائر ، واضطرب بطن اليم ، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط ، ووقفت الأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحيي الضيوف الأعزاء ، الأودّاء الأحبّاء ، وتغني وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الموسيقى الشجية

وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية . أبوللو ! ! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة ، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة ، فتقفز الحجارة مترنحةً من الطرب إلى مكانها من الأسوار !!

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضي ، وتعلو في السماء ، أم ديانا الهيفاء ترقص في القلوب والأحشاء !!

ونهض الجميع إلى المقصف الفاخر الذي تفننت في تنويع آكاله وأشربته أيدٍ إلهية ماهرة ، فأكلوا ما لذ ، وشربوا ما طاب ، وأخذوا في سمر جميل . وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك . وتُدَوّي الأكف بالتصفيق . !

وبينما الآلهة في قصفهم ، لا يفكر أحدهم إلا في هنـــاء العروسين ، إذا بالربّة الخصيم أريس [1] تظهر فجأةً في وسـط الجماعة ، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر ، وتنفثان سم البغض ، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خصلٌ ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة ، وعلى صدغيها الأيمن والأيسر يخشخش عقربان منكران لكل منهما ذُنابَى يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا

ظهرت إريس غاضبة حانقة ، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التي أرسلت إلى الأرباب جميعاً . وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد ، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وَطِئته قدماها . أليست هي ربة الخصام ، النافثة في نار العداوة التي تتضرم منذ الأزل في الجوانح والقلوب ؟

لكنها لم تنس لهم هـذا الإهمال ، بل أقبلت ، وهي تتميّز من الغيظ ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم

ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفةً حين رأوا إليها تُقلّب فيهم ناظريها المشتعلين ، غير أنهم اطمأنوا قليلاً ، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تُفّاحةً كبيرة من الذهب ، نُقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة : « للأجمل ! »

— ٣ —

باريس :

درجت عادة القدماء أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجه من توّه إلى الهيكل يقدم القرابين ويزف الهدى ، ثم يستوحي المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء ، ليأخذ للأمر أهبته ، وليعد لكل شيء عدته

فلما وضعت هيكيوبا ، ملكة طروادة ، غلامها باريس ، حمله أبوه الملك ، پريام ، إلى هيكل أبوللو ، ليرى رأي الآله فيه

واربدّ وجه الملك الشيخ ، وتغضّنت أساريره ، حين قال له كاهن المعبد : إن ولده سيكون كارثةً على قومه وعلى بلده !

(١) حرب طويلة لايتسع هذا المكان من الرسالة للتحدث عنها ، ويرجع إليها في الميثولوجيا من شاء

(١) تسمى أيضاً دسكورديا (ومعناها نزاع) أو إيريه

يأتى من الاثم ما يجر إلى قتل آله وبنى جلدته ، ويُفضى إلى سقوط طروادة فى يد أعدائها

وتحدث برمم إلى هيكيوبا فى ذلك ، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء ، فوق واحدةٍ من جنبات الجبل ، بنوشه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فعلتهما الشنعاء ! ولكن القضاء ينبغى أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به ، واتخذه لنفسه ولداً ؛ ثم سهر عليه واعتنى به ، ونَشَّأه تنشئة الفروسية التى كانت أحب مزاولات الحياة فى هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً ، جميلاً ممشوقاً ، فعمل مع الراعى الذى أنقذه . وكان مولعاً بالبحر ، تشوقه أمواجه ، وتفتنه أواذيّه ، فكان يختلف إليه ربما تفيّ الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج . وبدت له إحدى عرائس الماء — إيونونيه — وكانت قسيمةً وسيمة ، فهويها وعلقها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شىء عليه فى هذه الحياة

وعشقته إيونونيهُ ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليل برد الشفاء والأسفاء !

لقد قضت ربات الأقدار — كاوتو وأختاها — ألا يدوم هذا الحب طويلا[1] !

— ٤ —

اجتمع الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها ، وكل تدعى أنها أجل من فى الحفل جميعاً . . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت حيرا وميزفا وڤينوس ، ميممات شطر الجهة التى يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة . . .

— « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وآثركنّ إلى قلب الإله الأكبر ، أنا ، أحقكن بهذه التفاحة العلوية ، وأعرفكن بقدرها . . . سأضمها إلى تفاحات هسبريا[2] ، فهى بهن أليق ، وهن عليها أحفظ . . .

سيعانقها مع أخواتها الثلاث لتزداد بها حداثتهن . . . »

— « أنت تفاخرين بملك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وأبهة الموعظة الحسنة ، وجلال الرأى السديد ؟ بل أنا . . . ميزفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة . . . »

— « فيم تختصمان يا أختىّ العزيزتين ؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هى الأجمل ؟ أو لست أنا . . . ڤينوس جميعاً . . . ربة الجمال ؟ لِمَ تربعت على عرش الفتنة إذن ؟ هى لى من دونكما ! . . . »

واختلف الآلهة ، وساد هرج ومرج ، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الحوان أن يفوه بكلمةٍ يفضل بها إحدى الربّات الثلاث حتى لا يقع فى سخط الأخريين ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما . . .

وتفرق الجمع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتليّثن به ، واتفقن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن فى أمر التفاحة ، وتعاهدن ، بالايمان المغلّظة ، أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرن طويلاً ؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلىء والمرجان ، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ ، بل ما كانت أعينهن ترتم عن لُقية إيريس ! !

وكانت عروس فتانةٌ من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها فى الجهة التى جلست بها الربات يتربصن . . .

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مُستراد باريس الذى يُربع فيه قُطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتبادلان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشائه ويغنى ؛ فزلزل قلب إيونونيه ، وهلعت نفسها ، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذى انتهى اليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد ذاعت وشاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ؛ فلما

(١) نظم الشاعر الانجليزى الفنانى الفذ ألفرد تنيسون مأساة ايونونيه نظماً رائعاً ، وهى من خير شعره ويجدها القارئ فى ديوانه ص ٧٤—٨١ طبعة كلتز

(٢) راجع قصص « هرقل » فى الأعداد السابقة من « الرسالة »

عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات فى هذه الناحية من الجبل من أجله ، اضطربت أيما اضطراب ، وقلقت على باريس أيما قلق . لأنه وحده هو الذى يجوز بهذا الطريق ، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان . وكان مصدر قلقها هو ماعساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لها بالتفاحة . . .

— ٥ —

وصاحت حيرا : « قف أيها الراعى الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه . تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً ، وأنا — حيرا — مليكة الأولمب وذات الحول والطول فيه ، وربة التاج والصولجان ، وصاحبة القوة والسلطان ، وآثر أزواج ربك ، كبير الآلهة ؛ وأحبهن إليه ... أنا — حيرا ذات الجبروت — وولدى مارس إله الحرب ، ورب الطعن والضرب ، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى فليكان كذلك ، إذا شئت سرد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم ، لا يُشق لك غبار ، ولا يجرى معك فى مضمار ! إذا خضت حرباً حماك مارس وأيدك ، ونصرك فليكان وآزرك . . . ألست ترى إذن أيها الراعى الجميل أننى أحق من هاتين بتلك التفاحة ؟ أنا — حيرا مليكة الأولمب — سأمنحك الثروة التى لا تفنى ، والسلطان الذى لا يبيد . . . سأجعلك ملك هذه الديار التى ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج ، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التى تحياها ... أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذى يثغو . . . »

وصمتت حيرا ... وجعل باريس يقلب فى التفاحة ناظريه ، وفى قلبه مما رأى وسمع فرق عظيم . . .

لقد كانت حيرا تختال فى ثوبها الأولمبى الموشى ، وكان طاووسها الجميل — الذى اتخذته منذ الأزل رمزاً لها — يتشبث بناصيتها ويميس ، فيزيدها جلالاً وكبرياء

— وأوشك الفتى الراعى أن يقدم التفاحة لحيرا ، لولا أن صاحت به مينرفا :

— « على رسلك أيها الشاب . . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا ... أنا لن أزخرف عليك بملك ولا سلطان ، فأنت أعقل من أن تنخدع للعرض الزائل ، وأعلى من أن يهبمن جسمك على عقلك ، وهواك على قلبك ... أنا مينرفا ربة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس ... سأمنحك السداد ، وسأكشف لك حجب الجهالة ، وسيضىء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس ، وأعلم الناس ، وأحكم الناس ... »

وسكتت مينرفا ؛ وسُمع هاتف من جهة البحر يصيح : « باريس ! اعطها لمينرفا يا باريس ... » ، وكانت إيونونيه ماقى ذلك شك ! !

وكاد باريس يلقى بالتفاحة فى يدى مينرفا ... لولا أن تقدمت ڤينوس الصناع ... ڤينوس الحلوة ... ڤينوس الساحرة ... ڤينوس ذات الدل ... ڤينوس التى تكفى غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجى لاذلال ألف قلب ... ... لولا أن تقدمت ڤينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها ... ... تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم ، وتتبرج وتهتز ، وتشد هذا الندى وتثنى هذه الذراع ، وتميل برأسها الذى كله خدود وعيون وأصداغ ... تقدمت ڤينوس تبسم للراعى الجميل عن فم حلو رقيق ، تتلألأ ثناياه ، ويتضوع عبير خمره ، وقالت : « باريس ! هل لك عينان تعرفان الغزل ، وقلب يعرف الحب ؟... باريس ! أنا ڤينوس التى ضلت لها بالأمس ، والتمست منها التوفيق ... ها أنا ذى يا باريس ... أليست التفاحة للأجمل ! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة فى العالم ؟ ستكون زوجتك مثلى ، تفمرك بجمال لانهائى لاحدود له ، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها فى جنة ... قبل ... نظرات حلوة ... خدٌ مورّد ... أهداب كظلال الخلد ... ساق ملتفة عبلة ... جسم ممشوق طوال ... جيد مهتز ناضج ... ثدى مثمر يتحلّب نعيما ... ... هاتها يا باريس ... هاتها يا حبيبى ... »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها ، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة فى يديها الجميلتين ، برغم الصيحات المتتالية التى كانت تهتف به من البحر : « لا يا باريس ... لا يا باريس ... إعطها لمينرفا يا باريس ... ! »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا ، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه ... ولم يلق إيونونيه بعدها ! !

(لها بقية)

دريني خشبة